"صورة الغربة والمنفى في شعر يوسف الخطيب "

بحث مقدم لمؤتمر "اللاجئون الفلسطينيون وحق العودة"

جامعة القدس المفتوحة

2012/5/13

د.سالم أبو محيسن

2012م

المـقـدمـة

الغربة والمنفى من أهم المحاور التي اختصت بها التجربة الشعرية الفلسـطينية ، لمـا تحمله في طياتها من آلام وعذابات اللاجئين الفلسطينيين في أماكن الشتات ،واللجوء ، ومـا ترتب على هذه المعاناة من إصرار على التمسك بحق العودة ، وقد ركز الشعراء في أعمالهم علي هذا المحور لمد جسور التواصل بين الأجيال لفهم هذا الحق في ظل اختلال ميزان العدل الدولي . ويأتي صوت الشاعر " يوسف الخطيب " ليصدح بكل هـذه العـذابات ومحرضـاً الإنسان الفلسطيني على الثورة ضد النفي والتشريد عبر التمسك بحقه في عودته إلى الـوطن المسلوب.

لذلك جاء اختيار الباحث لأعمال "يوسف الخطيب " الشعرية في محاولـة لإبـراز الملامـح والسمات والدلالات المختلفة لصورة الغربة في تجربته الشعرية ، متخذاً من المنهج التحليلـي وسيلته في شرح وتحليل هذه الدلالات ، وإبراز قوة وعمق أدوات الشاعر الفنية في التـأثير على وجدان الأجيال الفلسطينية المتعاقبة للتمسك بحق العودة . وقد سار البحث علـى النحـو الآتي :

أولاً : **بيان معنى الغربة والمنفى .**

ثانياً : **إبراز ملامح وسمات الغربة والمنفى المتمثلة في** : دلالة الألم والمعاناة مـن رحيـل وتشتت، ودلالة الحنين والشوق للوطن المسلوب ، ثم دلالة الآثار الاجتماعية التـي أحاطـت باللاجئين الفلسطينيين في حرمانه من أبسط حقوق الإنسان للعيش بكرامة وحرية ، ووضـعه دائماً تحت سطوة الملاحقة والتشريد .

ثالثاً : **رمزية الصورة :** وفيها يتم الحديث عن الأدوات الفنية التي استخدمها الشاعر لتجسـيد الصورة الشعرية والتعبير بوسائل لغوية تثري تجربته ، فكان الرمز الشعري حاضراً لديه من خلال عودته إلى الرمز التراثي بأنواعه المختلفة " الدينيـة والتاريخيـة والطبيعيـة " . ثـم استخدامه الرمز الأسطوري المحمل بالدلالات المتنوعة التي تسـاهم فـي تعميـق التجربـة الشعرية وثرائها .

التعريف بالشاعر :

هو يوسف بن محمود بن الخطيب ، من مواليد قرية دورا قضاء الخليل في فلسطين ، ولد في السادس من مارس عام 1931م ، تعلم في مدارسها حتى أنهى المرحلة الثانوية .

مارس العمل الصحفي والإذاعي في إذاعة القدس، وإذاعة دمشق ، والتحق في الوقت نفسه بكلية الحقوق في جامعة دمشق عام 1951م ، وحصل علي إجازة الحقوق، ودبلوم اختصاص في الحقوق العامة عام 1955م .

عمل في الصحافة في كل من الأردن ،وسوريا ،ولبنان ،والعراق، والكويت ،والسعودية ومصر ، ثم عمل في إذاعة القسم العربي بهولندا ، ثم مديراً عاماً لهيئة الإذاعة والتلفزيون السوري عام 1965م .

أسس عام 1966م دار فلسطين للثقافة والإعلام والفنون ، وهو عضو مؤسس لاتحاد الكتاب العرب في سوريا عام 1966م ، وعضو المجلس الوطني الفلسطيني عن المستقلين عام 1968م ، ونائب الأمين العام لاتحاد الكتاب والصحفيين العرب عام 1972م .

توفي الشاعر في السادس عشر من يونيو من العام 2011م في منفاه القسري بمدينة دمشق عاصمة سوريا .

مؤلفاته الشعرية وإبداعاته :

1- ديوان " العيون الظماء للنور " عام 1955م .
2- ديوان " عائدون " أو " العندليب المهاجر " عام 1959م .
3- ديوان " واحة الجحيم " عام 1964م .
4- ديوان " رأيت الله في غزة " عام 1988م .
5- ديوان " بالشام أهلي والهوى بغداد " عام 1988م .
6- قصائد متفرقة منها " مطولة شعرية بعنوان امنع الخمرة عني ، في أذان العصر ، الرهان ، إعلان براءة ، إنني أعتب يا شعبي عليك " .
7- أصدر مؤلفه السنوي العالمي " المذكرة الفلسطينية " عام 1967 .
8- أصدر كتابه " ديوان الوطن المحتل " عام 1968م الذي يتناول نشأة الحركة الشعرية في فلسطين عام 1948م .

أولاً : في معنى الغربة والمنفى :

الغربة في المعجم الوسيط : غَ رُبَ : غُربَة: ابتعد عن وطنه ، غَرَبَ في الأرض: أمعن فيها مسافراً سفراً بعيداً، وتعني ، اغترب : نزح عن الوطن ، تَغَرَبَ : نزح عن الوطن "[1] ".

الغربة في لسان العرب هي: الارتحال والابتعاد عن الوطن سواء أكان الابتعاد عنوة أم اختياراً "[2]".

قيل لأعرابي ما الغبطة ؛ قال : الكفاية ولزوم الأوطان ، والجلوس مع الإخوان ، وقيل ما الذل قال : التنقل في البلدان والتنحي عن الأوطان . "[3] "

أما المنفى فهو اسم مكان من نفى وهو مكان إقامة المطرود من بلاده ، أو المكان الذي ينفى إليه المبعدون السياسيون أو غيرهم .

ثانياً : ملامح وسمات الغربة :

تأتي الغربة والمنفى من أهم القضايا التي تعانيها التجربة الشعرية الفلسطينية المعاصرة ، بل هي أحد مرتكزاتها التي تتجسد في إبداعاتهم المختلفة بدلالات ،وسمات متعددة والتي يمكن دراستها على النحو الآتي :

أ- دلالة الألم والمعاناة :

إن عملية التشريد والنفي والضياع التي ألمت بالفلسطينيين بعد نكبة عام 1948م ونكسة عام 1967م ، أنهكت قواهم وأفقدتهم هويتهم وحضارتهم ، وتجرعوا مرارة العيش وآلام التشتت بعيداً عن الأرض والوطن ، وجاء الشعراء لرهافة حسهم وعمق شعورهم أكثر ألماً وأشد إحساسا بفداحة الخطب وآلام الفراق ، مما ساهم في إلهاب حناجرهم وصدوح أصواتهم الثائرة والرافضة لهذه الغربة وتعدد المنفى ، ومن هؤلاء الشاعر " يوسف الخطيب " الذي نجده يحمل فاجعة الغربة والتشرد على كاهله ، وأصبحت صفة ملازمة لأشعاره ، لأن الرفض والاغتراب والمنفى ثالوث يواجه الإنسان الفلسطيني والشاعر الفلسطيني على حد سواء ، وأضحي المنفى هو ديدن الفلسطيني وقدره المحتوم ، وبقي الخطيب يصارع المنفى ويرشقه بالحجارة الشعرية مجسداً عذابات الرحيل والترحال والاقتلاع والتوقيف والإبعاد والتعذيب ، ومعمقاً هذه الدلالات في نفوس اللاجئين الفلسطينيين ليتشبثوا بالوطن فهو يخبرهم

---

[1] - المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ط4 ، 2004م ، ص 647 .

[2] - ابن منظور ،لسان العرب المحيط ، ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي، ج3 ، دار لسان العرب ، بيروت ، ص 741.

[3] - الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، مطبعة السعادة ، القاهرة 1324هـ ، ص78.

أن رحلة المنفى والغربة الإجبارية الطويلة لم تنسه أرضه، ووطنه، فلم ينفصل عنده الـــرأس عن الجسد ، وبقيت المسافة بين فلسطين والمنفى هي المسافة بين دواوينه الشعرية التي أفرغ فيها عصارة قصائده الملتهبة شوقاً وحنيناً ، وبقى قلبه هناك وجاء جسده إلى تعدد المنـــافي ، حيث إن كل ما حوله يطارده وينفر منه ، يحيا مع الغربة ويتجرع مرارتها متنقلاً ومطـــارداً في سبع دول عربية ، تلفظه كل دولة عن أرضها ليتوجه إلى منفى إجباري جديد هو " هولندا " بعد أن كان يأمل أن تحتضنه البلاد العربية لتوفر له المأوى والملاذ الآمن ، لكنه وجد غير ذلك ، فيقول في قصيدته " قل لنا شعراً " من ديوانه الثالث " واحة الجحيم :

يا سادتي .... والغناء موجدة
عندي ... وهْمُ العشية الطرب
ماذا يغني الذي أصابعه ...
صمت وأعماق روحه صخب
ماذا .. ودون الغناء ملحمةٌ
تفور في أضلعي ، وتلتهب !!
قد ألبستني الحداد ذات يد
فكيف أشدو والقلب ينتحب
وبي حنين الإبعاد ما هدأت
رجلاي ، إلا وحثني الطلبُ
هذا جراب الغريب ليس فيه
ما تشتهون الحكاية الذهب
ظلُ علي الدرب راحل أبداً
مشرد في ذويه مغـــتـــرب
ينمو علي أصغريه وعدُ غد
تسقيه منه الوريد والعصب
له الـــدوالي يظل يزرعـــها
وللعصافير بعـــده الـــعنب "[1] "

هذا الخطاب الحاد الذي يعكس الحالة الضبابية ،والشعور بالمعانـــاة والظلـــم ، ومحمـــلاً بدلالات تتنوع صيغها ما بين النداء "يا " ، والاستفهام الاستنكاري " مـــاذا ، مـــاذا ، كيـــف " ليسير بمشاعر المتلقي نحو الانفجار ، ويلهب النص حركة وثراءً دلالياً ، فكـــأني بالشـــاعر

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان " واحة الجحيم ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ، 1964م ، ص 173 ، 174.

يخاطب الجميع قائلاً لهم رغم مرارة المنفى، وعذابات الغربة التي كادت أن تقتل فيه روح الشعر والغناء ، إلا أن بذرة الأمل التي تسكن جوانحه إيمانا بالعودة ، لا زالت تنمو في قلبه ويشدو بها بلسانه ، ويغذيها بكل ما يؤدي إلي نموها وثورتها على القيد والترحال ، لأن حتمية العودة قادمة إلى أرض الوطن المغروس بأشجار العنب والدوالي التي غرسها هناك وتنتظر عودته . فما ألفاظ " الزرع ، والدوالي ، والعصافير " إلا إشارة إلي الأمل والحلم الذي يحيا عليه اللاجئون في دروب المنفى وتيه الغربة .

وفي موطن آخر يجسد الشاعر هويته ويثبت ذاته عبر بحثه بعزيمة وإصرار عن الوطن المفقود ، فمهما تعددت الدروب التي تأخذه من منفى إلي أخر فإنه يعلن عن هويته التي حاول الكثيرون طمسها وتذويبها عبر تخليهم عن نصرته وتعميقهم لجرحه النازف بطرده واقتلاعه بعيدا عن الوطن فيقول :

أعرفت من أنا ...
لا ...
أنا العربي من جبل الخليل
ظَلَلتُ وافترقت دروبي
أنا من حملت علي جهات الأرض فاجعة
التراب الخصب والزمن الجديب
وأنا الذي وطني ارتحال الشمس ملء الأرض
لكني بلا وطن
من ذا يصدقني !!...
أبليت نعلي في الرمال ،وفي الجرود،
أدق أبوابا وتدفعني
من أنت ؟ ... من عرب الخليل
وعم تبحث ؟ ..
عن ثرى حرُ ، وعن سكن . "[1] "

ب- دلالة الحنين والشوق :

القصيدة ما هي إلا إفراز لواقع معين ، إلا أن الواقع كثيراً ما يكون إفرازاً للقصيدة ، والمعاناة هي السراج الذي يشعل فتيل الثورة "[2] " ،وقد جاء واقع الإنسان الفلسطيني من تشتت وألم وعذاب حافزاً لدى الشعراء ليضيئوا بكلماتهم عتمة هذا الألم والحزن ، فالغربة أو

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان واحة الجحيم ، ص 71 ، 72 .
[2] - كمال احمد غنيم ، مقابلة صحفية في جريدة " النهار المقدسية " ، العدد 2022 ، عام 1992م ،ص 11.

الشعور بالغربة يولد الحنين لدي الإنسان ، ويثير جوارحه بالشوق المفعم بالأمل " فغربة شعب ممزوج بعذاب لا نهاية له ""[1] " . و كانت الذاكرة وسيلته لبث الحنين والشوق لـــلأرض الأم موطن النشأة والحياة الأولى ، فهو مهما ابتعد زماناً عن عهد طفولته في الوطن يبقـــي ثمـــة رنين يخفق بأجنحته الكثيرة ، يتمحور حول النواة يجول في العالم كله ، ولكنه يظل منشطرا ومتشظياً ؛ لأنه شاعر مطرود ورحيله قسري وإقامته قسرية يعيش المؤقت ، يتـــذكر وطنـــه ومرابعه الجميلة متوحداً مع آلام شعبه المنفيين ويحاكي مشاعرهم وأحاسيسهم " فها هو يبـــدأ ملمح الحنين والشوق بلومه نفسه واللاجئين علي ترك الوطن وإيثار الهرب عـــن التضـــحية والفداء ، ممزوجة كلماته بآهات الحنين وألم الشوق مع روح التمرد والثـــأر والانتقـــام فـــي قصيدته " همسة إلي لاجئ " من ديوانه " العيون الظماء للنور" قائلاً :

لك في البعد منزل وحبيب
لك حقل ملون في الغروب
لك دار تركتها لك بيت
لك أرض خصيبة حيث كنت
فلماذا ضيعتها وأتيت
نحن كبشان للفدا فانتفض
وإذا أنت لم تثر فاندثر
بل تمرد جهنماً واستعر
وخذ الحق عنوة واقتدر
لغم صامت أنت فانفجر ""[2] " .

إن صورة الوطن والحنين إليه والتمسك به تجلت في التكرار لكلمة " لك " الذي قصـــده الشاعر ليهيء الجو النفسي ويوصل المعني المراد التعبير عنه في رفض واقع الغربة والتمرد عليه للوصول إلي العودة المنشودة لربوع الوطن بكل ما فيه " الحبيب، والغروب ، والـــدار، والحقل"

وفي موضع آخر نجد أعذب وأرق صورة للحنين والشوق عندما يستخدم الشاعر الحوار وسيلته لبث الهموم ،ولم يجد إلا شخوصاً تتقاذفهم هواجس الحياة وتعبث بهم عثرات الزمان ، فيلوذ إلى الطبيعة ليحاور طائراً تراءى له بين أشجار الصفصاف في مقهى على ضفاف نهر بردى يتوحد معه في غربته لعله يكون قادماً من الوطن محملاً بالأشواق والذكريات ، حيـــث

[1] - ماهر حسن فهمي ، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ص 86 .
[2] - يوسف الخطيب ، العيون الظماء للنور ، دار الآداب اللبنانية ، 1955م ، ص14 .

ينساب حواراً هادئاً حالماً ، ومغلفاً بكل نوازع الرفض والعصيان لهذا الواقع الراكد من الغربة فيقول :

أتراك مثلي يا رفيق تمر في الزمن
لا صاحب يرخي عليك غلالة الكفن
لكأن في عينيك بعض اللمح من وطني
وأكاد ألمح في وجومك لون مأساتي
جرحي وملحمتي وتشريدي وأهاتي
بي لهفة يا صاحبي مشبوبة بالنار
هل بعض أخبار تحدثها وأسرار
للظامئين علي متاه الوحشة العاري
عجباً تراك أتيتنا من غير تذكار
لو قشة مما يرف ببيدر البلد
خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد
لو رملتان من المثلث ، أو صفد""[1] " .

ج- دلالة الأثر الاجتماعي :

الأدب عامة والشعر على وجه الخصوص مهما تباينت ضروبه واختلفت عصوره ؛ لابد أن يكون معترفاً به على مستوى الجماهير ، ولابد أن يكون معبراً عن هموم البشرية ، ليبقي قريباً من الوجدان وبكل ما يحيط بالإنسان في كل زمان ومكان " فالأديب إنسان يعيش داخل المجتمع ،ويخوض تجربته فيه بكل معاناتها ، ويرقب مساوئه ويشعر بها ، وينخرط في هذه المعاناة إلي أبعد مدي ليكشف عن عناصرها ودواعيها الكامنة ، وهو إذ يحمل من رهافة الحس ودقة الملاحظة والإدراك الجيد ما يجعله شديد الاحتكاك بكل المشاكل والقضايا الحياتية في المجتمع ، ولا يستطيع العيش بمعزل عنه ، يستشعر الخطر المحدق بالناس ، وحاجتهم لمن يرشدهم ويشرح لهم كيفية حل المشاكل مستخدماً في ذلك التعبير الفني كوسيلة من الوسائل الفعالة للوصول إلي نفوس الناس داخل المجتمع" "[2] " ، فالشعراء الفلسطينيون لم يشذوا عن هذا المسلك ، حيث شغل المجال الاجتماعي حيزاً في نتاجهم الشعري ، وإن تداخل الشأن الاجتماعي بالشأن السياسي لارتباطهما معاً في التعبير عن قضيتهم الوطنية التي عانى من آلامها وعذاباتها الإنسان الفلسطيني أينما وجد ، فهذا الشاعر يوسف الخطيب يأتي مرتبطاً منذ بواكير حياته بواقع الشعب والأمة ، وكانت القضية الاجتماعية من أولوياته ، فكتب

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان عائدون، دار الآداب اللبنانية ، 1959م ،ص101وما بعدها .
[2] - عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، ط3 ، 1978م ، ص373 .

للجماهير علي امتداد الوطن العربي قائلاً في مقدمة ديوانه " العيون الظماء للنور " " أظن أن المحتوى الشعري ينبغي أن يكون انفعالاً إنسانياً نبيلاً ؛ بمعني أن يولد مشاركة وجدانية حارة في جميع الأسوياء من الناس ، إنه على سبيل المثال الحب في حالة التضاد مع الشهوة ، القلق في مقابل التشاؤم ، الفرح بديلاً عن الحذر ، وهذا الانفعال متى كان سامياً فهو إنساني بالضرورة وعاطفة الإنسان تتدرج اتساعاً عميقاً من حبه لأسرته إلى حبه لمجتمعه ، إلى حبه لشعبه ، إلى حبه للإنسانية جمعاء " "[1] " .من هذا الدفء الإنساني انطلق الشاعر ليضع كلمته في خدمة الإحساس والحالة النفسية ، وينظر إلى الحياة بصورة مباشرة في تعبيره عن رؤيته ورؤاه المحملة بالأسى والألم ، رؤية المسافر الذي سلحته المنافي بالثبات والتفاؤل والإصرار، وتزداد هذه الرؤية عمقاً كلما حملته قدماه إلى منفى جديد ، وكلما زادت تفاصيل تجربته احتكاكاً بحقائق الواقع المعاش . فينطلق بشعره ليفتش عن مصدر الانفعالات الإنسانية المختلفة في صفحات التاريخ وواقع حياة الناس ، حيث نجده يرسم حالة الضياع والتشرد للاجئين الفلسطينيين بكل ما يحيط بهم من واقع اجتماعي في المنفي ، وما يتعرضون له من مطاردة وقمع وإذلال في قصيدته " أنهض من جنازتي وأمشي " في ديوانه " بالشام أهلي والهوى بغداد" فيقول :

كأنني الآن جميع أمتي .. أموت
والعربي الأخير
أذبح في غزة ، في صيدا ، وفي بيروت
من عنق شعبي الصغير
يسكنني القاتل ، والمقتول
كأن خلف كل عطفة . وعاء نعشي
وخلف كل برهة .. أيلول
وها أنا ملاحق للأمم المتحدة
هويتي .. مخرب .. وجلف
أني أحمل نكبتي في جبهتي المتقدة
يقول لي العالم : قف !! ...
ووقفت حافياً وراء باب أمتي العظيمة
أدقه علي قلوب مغلقة
في الليل والثلج ، وفي مخالب الجريمة

[1] - يوسف الخطيب ، مقدمة ديوان " العيون الظماء للنور"، دار الآداب اللبنانية 1955م ، ص10 .

حتى غدت يداي مطرقة
وصرت ضيف أمتي ، وصار جسمي الوليمة
وهيأت لي ، خيمة ، ومشنقة "[1] " .

هذه الكينونة الخاصة التي يمتلكها الشاعر بحلمه ،وخياله ليشارك بها القارئ في موقفه من الكون والحياة ، فهو لا ينطلق في رؤيته من نظرة إنسانية ضبابية غائمة تجعله إنساناً وهمياً ، بل ينطلق من رؤية فكرية تاريخية جدلية تعايش أوضاع الإنسان الفلسطيني المضطهد وتنحاز إليه ، حيث الفلسطيني ملاحق ومطارد في كل مكان فما ألفاظ " أموت ، أذبح ، نعشي ، أيلول، حافياً ، الليل ، الثلج ، الجريمة ، خيمة ، مشنقة " إلا معاول هدم لحياة الفلسطيني أينما وجد في دروب الغربة ، وما هذا الإحساس المؤلم إلا محاكمة للواقع ،ورغبة في تغييره لتأتي لحظة الولادة والخلاص فيقول :

أنا الذي سجلت في عيني عنوانها
جسدت في جسمي فلسطين وألوانها
أنا الذي جُرعت فوق الطور أحزانها
وإنني الوعد الذي ينشر بستانها
يا أيها الموت الذي يشعل بالجرح الدجى
أشهد أنك الولادة !!.. "[2] " .

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان بالشام أهلي والهوى بغداد ، دار فلسطين للثقافة والإعلام والفنون ، ط1، 1988م ، ص 84، 85 .
[2] - يوسف الخطيب ، ديوان بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص 87.

ثالثاً : رمزية الصورة :

الصورة الشعرية سمة أساسية من سمات الشعر فهي تعكس موهبة الشاعر، وتكشف أصالته ، وتعمل على سبر أغواره الشعورية في قدرته على التوغل بحسه الممتد لارتياد عالم الإنسان بكل معاناته وطموحاته وأشواقه ، وهي " نقل تجربة حسية أو حالة عاطفية من الشاعر إلى المتلقي في شكل فني متخذ من الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة " "[1] " .

إن تشكيل الصورة الفنية وعملية الخلق الشعري تعتمد على الكثير من العوامل مثل " الطبع والموهبة والإلهام والذاكرة والخيال والتخيل والثقافة والبيئة الطبيعية والحضارية " ، فالشاعر يوسف الخطيب " شاعر الوردة والنار عطر في صميم الأولي ولهيباً في مكونات الثانية ""[2] " يتخذ من الصورة وسيلته في إبراز ملامح الغربة ودلالاتها متكئاً على أدواته الفنية المختلفة وإذا كان الدكتور محمد غنيمي هلال يرى: " أن طرق التصوير الشعرية وسائل جمال فني مصدره أصالة الكاتب في تجربته ،وتعمقه في تصويرها ، ومظهره في الصورة النابعة من داخل العمل الأدبي ، والمتآزرة معاً في إبراز الفكرة في ثوبها الشعري""[3] " فإن الشاعر يوسف الخطيب يحقق ذلك من خلال رسم الصورة الشعرية التي تعكس عمق المعاناة والألم للتجربة الفلسطينية عندما يقول :

في الظلام الحزين أقرع ناقوسي حداداً علي الطلول الدوائر
وأنادي في الريح أشتات قومي فيجيب الصدى وصمت المقابر

الظلام الحزين يجمع قومي
في إسارين من عناء وظلم
كجياع علي موائد وهمُ
خجل الصبح أن يطل علينا
في كهوف عتيقة ما نزال
يرقص الموت حولنا والزوال
في كهوف حراسها أنذال "[4] " .

---

[1] - محمد علي هدبه ، الصورة في شعر الديوانيين " بين النظرية والتطبيق " ، ط1 ، 1984م ، ص 47 .
[2] - أحمد دحبور ، عيد الأربعاء ، جريدة الحياة الجديدة 1998/8/5م ، يوسف الخطيب مجنون فلسطين وشاعرها الكبير،ص 2 .
[3] - محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار نهضة مصر للطباعة ، د.ت ، ص 387 .
[4] - يوسف الخطيب ، ديوان العيون الظماء للنور ، ص 73 .

مجموعة من الصور المتزاحمة تعكس حال اللاجئين الفلسطينيين في شتاتهم وتشردهم فالصورة الأولى حداد على هذا التيه والضياع ، والثانية وصف لحالهم وهم يتجمعون في الظلام مجموعات كأنهم جياع ينتظرون موائد الطعام ، أما الثالثة فهي تآمر الطبيعة عليهم حيث أن الصبح يخجل أن يطل عليهم تكريساً لظلام غربتهم في خيام ومعسكرات لجوء أشبه بالكهوف القديمة التي يتربص بها الموت من كل جانب . ومن أدوات الشاعر الفنية المستخدمة في قصائده نجد بروز الرمز والأسطورة يعكس من خلالهما دلالات الغربة والمنفى التي يمكن الحديث عنها على النحو الآتي :

- **في معنى الرمز وأبعاده :**

الرمز من أهم الخصائص الفنية للصورة الشعرية عند شعراء الحداثة ، ويأتي يوسف الخطيب ليدور في هذا الفلك لينزاح بألفاظه عن المستوى المادي للغته الشعرية ، ويجعل منها رموزاً تلح عليه وتدخل في تشكيل صوره لتعطيها الطابع الرمزي " فالرمز يعني الإيحاء ؛ أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالتها الوظيفية ، والرمز هو الصلة بين الذات والأشياء ، بحيث تتولد المشاعر عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية والتصريح " "[1] ". ولقد **احتل الرمز مكانة** هامة في جسد النص الشعري للقصيدة الفلسطينية الحديثة ، حتى أصبحت البنية الرمزية تشكل معلماً بارزاً من معالم التشكيل الفني للنص الشعري ، حيث جاء الرمز فيه ظاهرة معرفية وفنية لها أهميتها البالغة ؛ بسبب ثراء دلالاتها المتعددة ، وكيفية توظيفها وفرادة أسلوبها ، كما أن الرمز له خصوصيته في الشعر الفلسطيني ؛ لأنه ليس وليد تشكيل لغوي جمالي ، إنما هو متأثر بالواقع الفلسطيني الذي يعيش صراعاً خاصاً مع العدو الصهيوني ، مما أكسب الرمز خصوصية تنبع من طبيعة الجدل الدائر بين الإنسان الفلسطيني والكيان الصهيوني ، وما يتولد عن ذلك من أنماط الصراع الأخرى سلباً وإيجاباً .

وإذا كان الرمز يتكون من بعدين أساسيين هما " التجربة الشعرية الخاصة ، والسياق الخاص " حيث التجربة الشعورية مما لها من خصوصية في كل عمل شعري هي التي تستدعي الرمز القديم لكي تجد فيه التفريغ الكلي مما تحمل من عاطفة أو فكرة شعورية ، وذلك عندما يكون الرمز المستخدم قديماً ، وهي التي تضفي علي اللفظة طابعاً رمزياً ؛ بأن تركز فيه شحنتها العاطفية أو الفكرية الشعورية وذلك عندما يكون الرمز المستخدم جديداً " "[2]. فإننا نجد التجربة الشعرية عند يوسف الخطيب والتي تعكس تجربة الإنسان الفلسطيني بآلامه وعذاباته ومعاناته هي التي دفعته إلي استخدام الرمز الشعري " باعتباره وسيلة إيحائية من

---

[1] - محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، نهضة مصر ، ط3 ، 2001م ، ص315.
[2] - عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ،المكتبة الأكاديمية ، ط3 ، ص199.

أبرز وسائل التصوير الشعرية التي ابتدعها الشاعر المعاصر عبر سعيه الدائب وراء اكتشاف وسائل تعبيرية لغوية جديدة يثري بها لغته الشعرية لوصف مشاعره ،وأحاسيسه ،وأبعاد رؤيته الشعرية " "[1] ". فإن دارس شعر يوسف الخطيب يجد التنوع في الرموز الشعرية التي يستخدمها علي النحو الآتي :

أ- **الرمز التراثي :** تهتز ذاكرة الشاعر في غربته ومنفاه ليستذكر الوطن ويعيش التناقض المأساوي بين الذاكرة والحلم ، والأمل واليأس ، الغناء والبكاء ، البعد والعودة ، فيستثمر الرمز التراثي بأنواعه المختلفة " الدينية والتاريخية والطبيعية " حيث " نجاح الشاعر يعني التجاوب بين تجاربه وأحاسيسه وتجارب الناس وأحاسيسهم ، ويشترط في هذا التجاوب أن يكون نابعاً من صدق إحساس الشاعر وليس من التكلف وتبني آراء الآخرين دون التفاعل معها ، ولا شك أن قمة الجمال تكمن في توافق الهموم الذاتية مع الهم العام ، حيث يكون الشاعر بتجربته جزءاً لا يتجزأ من تجربة جماعة أو أمة " "[2] ". لذلك انبثقت تجربة الشاعر من عباءة التجربة الفلسطينية معبراً عنها بحالات انفعالية ذات رؤية أكثر شمولاً واتساعاً ، فالغربة والمنفى التي طالت به وتحولت إلى واقع يعيشه في حله وترحاله يحمل همومه ومعاناته ، وليس أمامه إلا الصبر والتشبث بجذوره التراثية ليحقق من خلالها حلم العودة ، حيث ينوع في العودة إلى الرموز الدينية فيبدأ بشخصية النبي صلي الله عليه وسلم يتوحد معها في معاناة الظلم والقهر التي أجبرته على الهجرة من دياره وموطنه فيقول في قصيدته " ناقة هاشم " من ديوان " واحة الجحيم " :

وزرعنا جبل الزيتون ، صلباناً
وأدبرنا على التيه العقيم
لا نجاشي لنا في الأرض ، ولا أنصار
لا مأوي لنا تحت النجوم
فاشردي يا غنم الله ، بلا وجه
علي منتجع ، الشوك ، وهيمي "[3] ".

وفي موضع آخر يقول :

فما تريد ؟ ....
ما أريد ، يا مولاي :
أن أشيع في عُلاك بددا

---

[1] - علي عشري زايد ، عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، مكتبة دار العلوم ، ط1 ، 1978م ، ص110 .
[2] - عدنان قاسم ، التصوير الشعري ،مكتبة الفلاح ، ط1، الكويت ، 1988م ، ص 17 .
[3] - يوسف الخطيب ، ديوان واحة الجحيم ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ، ط1 ، 1964م ، ص 16 .

" أريد جبريلاً .... وتنزيلاً
" وخيلاً لا ترى ... ومددا "[1] ".

صورة رمزية محملة بدلالة الغربة والضياع في دروب المنفى ، التي تشعبت بهم بحثاً عن الأنصار والأعوان ليقدموا لهم يد العون والمساعدة ، كما قدمها النجاشي لأصحاب النبي عندما ازداد الظلم والعدوان عليهم من المشركين . ورغبة في السعي للوصول إلى أسباب النصـــر " جبريل ، التنزيل ، الخيل ، المدد " كل هذه الأسباب توفرت للنبي ، أما الشاعر فإنه يعـــيش على هذه الذكري محملاً بالأمل في توفر أسباب الانتصار والخلاص من قهر الغربة .

أما رمز المسيح فهو حاضر لدى الشاعر محملاً بدلالة الفداء والتضحية يعمل من خلالها " تخصيب الرؤى وليستطيع أن يمد طرفه إلى غيابة تجربته مما يعطيه القدرة على أن يشق في حقل الفن رؤىً شعرية نبتها الرمز وثمرها تلك المعاني المختلفة التي ندركها من خلال القصيدة " "[2] ". فيحول الشاعر آلامه الذاتية إلي شعور بالمعاناة الإنسانية في طابعها العام ، فلا الموت يخلصه من عذابه ، ولا الحياة تجلب له السعادة حيث يقول :

ولم أزل أساق من مرحلة لمرحلة
أجر ثقل الصليب
وأستحيل جمرة ، فثورة ، فجلجلة
خلاص موطني الحبيب
بي جسد المسيح موثقاً علي صليبه
في عالم .... بدون قلب "[3] ".

وفي محاولة لإثارة المتلقي في كل وقت وفي أي زمان لأن " براعة المبدع أو قدرتـــه أو طاقته الفنية هي التي تمكنه من إعادة تركيب مواد صوره ، وفق رؤيته الفنية المركبـــة فـــي نسق تهمس موسيقاه الخفية والظاهرة الموجودة بين أشياء صوره همساً مؤثراً ديناميكياً فـــي نفوس المتلقين " فيأتي الشاعر برمز " مريم العذراء " للأمل والبشارة يبوح من خلالـــه عـــن رغبته في تغيير واقع التيه والغربة عبر ثورة عارمة قائلا:

فلتك هذي الليلة وصلاً وجمالاً
وحلولاً في العالم وخيالاً
ويتيماً من مكة بالقدس
يلون بستاناً قمرياً

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص 26 .
[2] - رجاء عيد ، لغة الشعر " قراءة في الشعر العربي المعاصر ، منشأة دار المعارف ، الإسكندرية ، 2003م ، ص 105 .
[3] - يوسف الخطيب ، ديوان بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص 86 .

ومخاض امرأة في جذع النخلة بالقبلة
وجنوناً عذرياً
ومجيئاً عربياً عربياً
في مشرق الأرض ، وفي أوجاع الناس
فلتك هذه الليلة عيد الأعياد
وأغنية الميلاد
وعودة شعب تقرع في فرح الأجراس "[1] ".

هناك رموز دينية كثيرة ومتعددة لا يتسع المقام لها في هذا البحث ، منها " رمز سيدنا يوسف عليه السلام في قصيدته " بالشام أهلي والهوى بغداد " ص 22 . ثم رمز سيدنا إسماعيل عليه السلام في قصيدته " ناقة هاشم " من ديوان " واحة الجحيم " ص 15 .

أما الرمز التاريخي فإن الشاعر يعود إليه بصوره المشرقة مستذكراً القيم والانتصارات التي أضاءت وجه هذا التاريخ ، ويحاكم من خلاله واقع الظلم والانحطاط حيث " الرمز والصورة يعتمد كل منهما على نوع من التشابه بين الصورة وما تمثله ، والرمز وما يوحي به ، وبينما تظل الصورة على قدر من الكثافة الحسية ، يبلغ الرمز درجة عالية من الذاتية والتجريد " "[2] " فها هو الشاعر يعود إلي شخصية " عقبة بن نافع " المحملة برمز الطموح والإصرار والجرأة في الثورة على حال الفلسطيني في تيه الغربة ،ودروب الشتات دون عون، أو سند يناصره فيقول :

شقيت أبصارنا تبحث عن نجم وراء السحب السود العقيمة
وتفيئنا عراء التيه نجتر مع الليل أمانينا اليتيمة
عقبة يغدو وراء الشمس
من هذا ؟ ...
أمن أيامنا الغر العظيمة ؟
غير أنا لم نخض " ذي قار " ! ..
لم نرجع إلي التاريخ في ثوب الغنيمة "[3] "

ويقول أيضاً :

أمن خفيف الظل يا شعبنا ذاك الذي تلمحه " عقبة "
لوى عن البحر جناح السنا وشق في عتمتنا دربه . "[4] "

---

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان رأيت الله في غزة ، ص 48 .
[2] - محمد فتوح أحمد ،الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3 ، 1984م ، ص 140 .
[3] - يوسف الخطيب ، ديوان واحة الجحيم ، ص 120 .
[4] - يوسف الخطيب ، المصدر نفسه ، ص 122 .

هذا الإبداع الشعري يتضح في تمحور الشاعر حول شخصية "عقبة بن نافع " في دلالتها التي تمثل جدلية الصراع المحتدم وتناقضات المرحلة ، إن ألفاظ "الشقاء ، السحب السود ، العقيمة الليل ،التيه ، اليتيمة " عبرت عن آلام المعاناة التي يعانيها اللاجئون ، أما ألفاظ " نجم، الشمس، يغدو ، الغر العظيمة ، " تعبر عن الأمل في انتظار القائد المنقذ الذي يقودهم إلي الانتصار والعودة . في حين جاءت الاستفهامات لتحاكم الواقع وتبشر بشمس الحرية .
ومن الرموز التاريخية الأخرى نجد رمز " المعتصم ، صلاح الدين ، طارق بن زياد " وجميعها تتوحد في دلالة الخلاص والانتصار على جحيم الغربة وظلمة المنفى فيقول :

ليلة أسلمت عباءتي الرياح
واتشحت دمهم أطارد الصباح
واتخذت صاحبيَ ــ الحُلم ــ والأرَق
خليت سيفي ــ صدئاً ــ مكانه
ملقي علي هيكلها العظمي
شارة الرجوع
وانتزعت من أسنة الضلوع
رأس قلم
كتبت عهدها به .. سأنتقم
وظل خلفي دمهم .. يصيح بي
أن أسبق الريح إلى خيام مازن
وأن أدق باب المعتصم "[1] "

ويقول :

تهيج بي ذكري التاريخ جامحة ويعتريني الآسي حولي فيقعد بي
توزعتني دروب لا لقاء لها الذل في الناس والعلياء في الكتب
أغزو "عمورية" في الليل أحرقها وشلو أختي غذاء الطير في النقب "[2] "

ويقول :

موتاي زرع المدى ما قمت عن جدث إلا إلي جدث في الأهل أبكيه
أستودع الله في الأردن لي وطناً رانت على أذن الدنيا مراثيه
ويوم كفنت في بغداد معتصمي لم أدر أن صلاح الدين تاليه
لم أدر أن تبوكاً جف دافقها ولا نبي قدر الأفق تسقيه "[1] "

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص 13 ، 14 .
[2] - يوسف الخطيب ، المصدر نفسه ، ص 50 .

لم يقتصر الخطيب في رموزه على الشخصيات ، إنما عمد إلى رمزية المكان الذي يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ، فالمكان أحد أبعاد النص الشعري ، وله أهميته في الأدب لأن " العمل الأدبي حين يفقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته " "[2] " . ففي غمرة الإحساس بفقدان الوطن وجمالية المكان الأول للإنسان ، والطواف في دروب المنفي بحثاً عن مكان للاستقرار والشعور فيه بالأمن ، أدرك الشاعر في رحيله المتواصل أن بوصلته تقوده إلي فلسطين حيث طريقه من جسد الوطن وليس من خارجه ، معلناً التمسك والتشبث بهذا المكان والانغراس في جذوره عبر إبراز وهج العلاقة بين الشاعر والمكان بكل ما فيه من حب يحمله للإنسان والحيوان والطبيعة موظفاً الدلالات الرمزية المختلفة للأمكنة التي لها بصمات واضحة في التاريخ الحضاري والإنساني ، يصب فيها جل معاناته ولتشكل عنده بنية في بناء النص الشعري ، حيث يستحضر الشاعر رموز " مكة ، القدس ، غار حراء ، المحراب ، الكهف ، الأزهر ، يافا ، الصفا والمروة ، بابل ، أورشليم " كلها لوحات شعرية يبث من خلالها دلالة الحنين للوطن المفقود بكل أماكنه المسلوبة الإرادة ، فهو إذ يسافر قسراً إلى بلاد كثيرة لا ينسي وطنه يحمله معه في حله وترحاله ، فها هو الرمز المكاني يأتي وشاحاً دينياً ومحاطاً بهالة من القدسية يزين به جبين الوطن الضائع ، عندما تأتي فلسطين متوحدة مع مدينة مكة بكل ما تحمله من شعور ديني عند المسلمين الذين تتشوق أفئدتهم لزيارتها وأداء مناسك ركن أساسي من أركان الإسلام وهو " الحج " ، ويتحملون كل مشاق السفر للوصول إليها ، فكأني بالشاعر يخاطب هذه الجموع ليشدوا الرحال إلى فلسطين أولى القبلتين وثالث الحرمين ويُطّهروها من دنس المحتل الغاصب،ويتحقق حلم العودة للاجئين قائلاً :

آه يا مكة أحلامي .... وبغداد أناشيدي
ويا رحلة أشواقي البعيدة
إنني أنزف في إثرك أعصابي وروحي
وتزودت على الترحال من نسغ جروحي
لك تمنيت وصليت وصمت
لك منذ البدء كنت
فيك علقت على الطور وقمت
فمتي تشفع لي عندك آهاتي المديدة "[3] " .

---

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان واحة الجحيم ، ص 103 .
[2] - يوسف الخطيب ، ديوان واحة الجحيم ، ص 103 .
[3] - يوسف الخطيب ، ديوان بالشام أهلي والهوى بغداد ، ص 42 .

وفي موضع آخر يلجأ الشاعر إلى استذكار مدينة يافا التي تأتي عنده معادلاً موضوعياً للوطن بكل ما فيه من جمال وإبداع الله في خلقها وتكوينها ، يبث من خلال رمز يافا أوجاع اللاجئين في كل أماكن تواجدهم في الشتات والغربة فيقول :

يافا مؤرقتي
يافا الرحيل لها
يافا الجنون ..
أنادي الله في جبل
ربي
أفض نورك الرُسلي في
ألق الصحراء
من ألقِ دربي
ويُعتم في قلبي السبيل لها
ربي ....
وما برحت نهب السراب
خطي شعبي ..
أما أُفق يوحي إليّ
أما شلالة من رحاب الضوء
تغمرني !! ... "[1] " .

ب- الرمز الأسطوري :

الأسطورة هي فكر الإنسان وتجربته ، وأبعاد الخيال ليس عند الفرد فحسب بل لدى الأمم ، لذا ظلت تتجدد وتقترب من الإنسان وتلتصق بتجاربه عبر عصوره المختلفة ، حتي غدت ذات طبيعة تعلو فوق أي عصر بذاته، وأي شخص بعينه ، وقد اكتسبت تلك الصفة المطلقة " لا زمانية _ لا مكانية " لتصبح حاضرة دائما في كل زمان، ومكان، وكأنها تذكرنا بذلك العود الأدبي الذي تحدثت عنه الفلسفة بشتى منابعها "[2] " .

وإذا كانت للأسطورة جاذبية فنية لأنها تسعف الشاعر علي الربط بين أحلام العقل الباطن ونشاط العقل الظاهر ، والربط بين الماضي والحاضر ، والتوحد بين التجربة الذاتية والتجربة الجماعية ، وتساهم في التنوع في أشكال التركيب والبناء الفني للقصيدة حيث " تتميز موضوعاتها بالجدية والشمولية التي تطال قضايا الإنسان الأساسية في الوجود من حياة وموت

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان واحة الجحيم ، ص 26 .
[2] - وليد مشوح ، دراسات في الشعر العربي الحديث ، دار سعد ، دمشق ، ط1 ، 1993م ، ص 223 .

ورسالتها غير زمنية تنتمي إلى نظام ديني معين ، تدخل في صلب طقوسه وتوضح معتقداته" "[1] " لذلك جاء الرمز الأسطوري حاضراً في العمل الأدبي لدى الشعراء ليكتسب ويستحوذ علي رؤاهم التي تقوى أو تضعف بحسب القدرة الشعرية إذ إن " الشاعر يحتاج إلي قوة ابتكاريه فذة يستطيع بها أن يرتفع بالواقعة الفردية المعاصرة إلى مستوي الواقعة الإنسانية العامة ذات الطابع الأسطوري ، فقد استطاع الشاعر المعاصر أن يجعل من شخصية " جميلة بوحريد " شخصية أسطورية ، كذلك حاول السياب أن يجعل من " حفصة " الفتاة الموصلية شخصية أسطورية ""[2] " . فإننا نجد الشاعر يوسف الخطيب تزدحم لديه الرموز الأسطورية محملة بدلالات مختلفة ومتنوعة يثري بها تجربته ، ويستغلها في بناء صوره للإيحاء بما لا تستطيع اللغة العادية أن توحي به من مشاعر وأفكار ، ويمكن رصد ذلك في قصيدته " مشيئة الجبار " التي تأتي فيها أسطورة " بروميثيوس " كإطار عام للتجربة الشعرية ينسج من خلالها الرؤية الشعرية ، وتبرز ثناياها وتسطر القصيدة حولها ، فلم يعمد إلى الاستعراض الثقافي ولكنه يتشرب روح الأسطورة بضابط فني ، لتغدو الومضات الشعرية مردوداً أسطورياً ثرياً ،فتخزن الأسطورة في اللاوعي وتتبلور صورتها الرمزية " لتضيء نفس الشاعر وتنقلها إلي الشعور ، عندئذ فقط يتم اعتماد الأسطورة ، وتتحقق الصلة بينها وبين التجربة الشعرية " "[3] ". حيث اللاجئ الفلسطيني يمتلك من الإرادة والعزيمة التي يتحدى بها كل صنوف العذاب والقهر في غربته ، أملاً في تحقيق حلم العودة والخلاص من واقع الاغتراب فيقول :

قسماً بفيض الدمع
سيعود أهل الدار رغم مخالب الظلم الدوامي
وهناك أطلق في المدي المجهول أجنحة الخيال
مشتاقة مجنونة الشوق النبيل إلي المحال
تتوغل الأعماق .. والأبعاد .. لاهفة السؤال
لم لا نعود ؟!!
وهناك في القفقاس ــ قيد " زيوس " كان من الجبال
قد حطمته يد المشيئة منذ ألاف الليالي
لم لا يعود ؟!!
بلي .. حديا كل آلهة القتال
وكأن ذكري الشاطئ الغافي هناك على الرمال

---

[1] - فراس السواح ، لغز عشتار ، دار علاء الدين ، دمشق ، ط5 ، 1993م ، ص 23 .
[2] - محمد حمود ، الحداثة في الشعر العربي المعاصر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1986م ، ص 153 .
[3] - علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، منشورات الشركة العامة للنشر ، ليبيا ، د.ط، 1978م، ص 117 .

نفضت جناح النسر من قيد ، عتيق الطوق ، بال
فأعاد أغنية اللهيب ..
وظل يرعد في الأعالي.. "[1] " .

إن الشاعر يتوحد مع شخصية برومثيوس الأسطورية في تحمله العذاب والمطاردة والملاحقة من كل أنظمة الحكم المتجبرة عندما اتخذ على عاتقه إضاءة عتمة الغربة للاجئين الفلسطينيين من خلال بث روح الصمود والتحدي في نفوسهم ، وسعياً لرفض هذا الواقع المؤلم عبر فعل الثورة التي لابد أن يقوموا بها ضد كل صناديد الظلم الحاكمة في بقاع المعمورة .

وفي مكان آخر يستحضر الشاعر أسطورة " حصار طروادة " ليعكس حالة التيه وما فيها من ألم وحسرة ، متسلحاً بحتمية الانتصار في نهاية هذا العذاب فيقول في قصيدته " انتصار طروادة " :

وكانت المدينة التي تجهمت
وراء سورها البحار
تضيء من جراح شعبها معابر الليال
تمزق الحصار تلوه الحصار والحصار
كان مخاض أمة
تطهرت علي محارق العذاب
اللاجئون راجعون في مسالك الشعاب
أجراس أنطاكية تدق عودة الغياب "[2] " .

المخاض عسير والحصار تلو الحصار يلاحق اللاجئ الفلسطيني يدغمه في العذاب وتحيط به أسوار الذل والمهانة، ولكنه لن ييأس من بزوغ فجر الحرية ،والعودة، والانتصار على الظالمين ، فرحلة التيه والاغتراب لن تدوم لذلك يتوحد الشاعر مع أسطورة السندباد تارة بالأمل فيقول :

صيفان ــ طير البحر مرتين عاد
هل أمحل الثرى ــ أم أكثر الجراد
لعله الآن يغد في الوهاد
يهزم نور الشمس يطرد السهاد
يلقي يديه في كنوز سندباد "[1] " .

---

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان العيون الظماء للنور ، ص 42 .
[2] - يوسف الخطيب ، ديوان عائدون ، ص 164 .

وتارة أخرى تتحول دلالة الرمز الأسطوري " السندباد " من أمل إلى يأس وأنين عندما يتخلى الجميع عن هذا اللاجئ في محنته فيقول :

ها أنا أيها الزمان وأنتم
قد سئمنا خوارق السندباد ...
أتحداه أن يخوض بحور الملح
من جلق ـــــ إلي بغداد "[2] " .

وفي نهاية المطاف مع رحلة اللاعودة التي طالت بهم وتقاذفتهم إلى دروب شـــتى ، يلجـــأ الشاعر إلى قول الحقيقة وكشف المستور ، من خلال العودة إلي أسطورة " شهرزاد " لتنطـــق بالكلام المباح ، وتخبر اللاجئين بالحقيقة المرة في تواصل هجرتهم ولم يعد أمامهم إلا العيش على ذكريات الماضي والحنين للوطن والأهل فيقول :

كنا وكان
وهاجنا التذكار ، والنغم المعاد
حتي طغي صمت
وأدركت الفجيعة شهرزاد "[3] " .

هناك الكثير من الرموز الأسطورية التي استخدمها الشاعر لا يتسع المقام لشرحها ولكـــن يمكن ذكرها مثل " أسطورة إله الحرب اليوناني مارس في قصيدته " أناشيد مارس الصغير " أسطورة " تموز " رمزاً لدلالة الموت والانبعاث في قصيدته " بالشام أهلي والهوى بغـــداد " ، أسطورة " يوشع اليهودي " في قصيدته " الطوفان ، أسطورة " أوديب " في قصيدته " أوديـــب ملكاً على الضفة الغربية "

إذن هذه الشجرة الشعرية عند الشاعر يوسف الخطيـــب أوراقهـــا الكلمـــات، والعبـــارات وغصونها المعاني، والدلالات وأزهارها الرموز، والأساطير ، استطاع أن يصل بها إلى اللغة الفنية المبتغاة ، والإيحاء بما يريد إيصاله إلى المتلقي تعبيراً عن معـــان معاصـــرة يعيشـــها الإنسان في الزمن الحاضر ، وما كتاباته وقراءاته للنصوص الغائبة إلا وسيلته الفنية ليجعـــل نصه الشعري مليئاً بدلالات متعددة، ومفتوحة ،تعمل على وجود هذا النص بقوة ليعانق تجربته الشعرية المعاصرة .

---

[1] - يوسف الخطيب ، ديوان عائدون ، ص 184 .
[2] - يوسف الخطيب ، ديوان رأيت الله في غزة ، ص 92 .
[3] - يوسف الخطيب ، ديوان العيون الظماء للنور ، ص 90 .

الخـــاتمـــة

هذه القراءة الشعرية بين قصائد الشاعر يوسف الخطيب ، التي اختصت بإبراز صورة الغربة والمنفى ، ومدى انعكاسها على شكل لوحات شعرية ذات طابع فني تجسد معاناة وآلام اللاجئ الفلسطيني ، وتبرز حرقة التيه في دروب الرحيل المتواصل لهذا الإنسان بعد أن تنكرت لـــه كل المبادئ، والقيم الإنسانية في الانتصار له لتحقيق حلم العودة ، فتارة يبكي، ويتألم ، وتارة يثور ويتمرد ، وثالثة يحلم ويتأمل ، كلها مشاعر وأحاسيس سيطرت على وجـــدان الشـــاعر يبوح بها تشبثاً وارتباطاً بجذور الموطن الأول شوقاً وحنيناً ، ومن ذلك يمكـــن اســـتخلاص مجموعة من الحقائق والنتائج عل النحو الآتي :

1- تجسدت في شعر يوسف الخطيب ملامح الغربة بكل وضوح من خلال تصوير الألـــم والمعاناة والشوق والحنين وإبراز الأثر الاجتماعي .

2- الكلمة الشعرية أداة تعبيرية هامة ذات فاعلية تأثيرية في تثوير الجماهير، وتنويرهـــا للتمسك بالحقوق والثوابت التي لا يمكن التنازل عنها ، وأهمها حق العودة الذي كفلته كل المؤسسات ،والمنظمات الدولية لهذا اللاجئ في أحقيته بالعودة إلى موطنه الأصلي الذي هُجّر منه عنوة وقهراً .

3- حقق الشاعر المتعة الفنية عبر استخدامه الصور الشـــعرية التـــي جســـدت المشـــهد السياسي الفلسطيني ، واختزلت المأساة الفلسطينية بدلالات واضحة عكســـت الواقـــع الثوري الملتصق بثرى الوطن ، وحددت الرؤية الذاتية في إثبـــات الهويـــة وتحقيـــق الذات.

4- حملت قصائد الخطيب الواقعية ،والبعد الإنساني لأنها نابعة من عمق الإحساس بحجم المعاناة والألم ، وامتزاج التجربة الذاتية بالتجربة العامة للجماعة والأمة .

5- أبدع الشاعر في استخدام أدواته الفنية عندما لجأ إلى الرمز والأسطورة ، فقد ارتد إلى مصادر الرموز المختلفة التراثية سواء دينية أو تاريخية ، فوظفها بدلالات وطاقـــات إيحائية تعبيراً عما يدور في نفس اللاجئ ووجدانه من أفكار وأحاسيس ومشاعر يحفز بها المتلقي ويستثير خبرته وثقافته ليكشف التيارات الدلالية والطاقة الإيحائيـــة التـــي تظهر جوانب الإبداع المضموني للقصائد ، وكانت مرجعياته التراثية مستوحاة مـــن

واقع الحياة الإنسانية وعلاقاتها الاجتماعية ؛ لذلك جاءت رمـــوزه تتســـم بالحيويـــة والتطور مع تطور تجربته وعمق رؤاه .

6- جاءت قصائد الخطيب خطاباً يحرك ويستنفر عواطف المتلقي في أي زمان ومكان ، فيثير انفعالاته وتوتراته ليتفاعل مع قضيته الوطنية بعـــذابات المنفـــى ،والتشـــريد، وويلات الانتظار في محطات الشتات .

7- اهتم الشاعر برمزية المكان فجاءت قصائده رحلة مكانية ترسم خريطة تجوالـــه فـــي أماكن معاصرة، وأخرى تاريخية، وثالثة يحلم بها ، ليستعيد من خلالها المكان المفقود والوطن الضائع بمدنه ،وقراه ،ومظاهره الطبيعية ، فبقي هو والمكان في حالة عشق متواصل .

المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

1. ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشـــلي ، ج3، دار لسان العرب ، بيروت .
2. المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ط4 2004م .
3. الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، مطبعة السعادة ، القاهرة 1324هـ .
4. يوسف الخطيب ، ديوان " العيون الظماء للنـــور " ، دار الآداب اللبنانيـــة ، دمشق ، 1955م .
5. يوسف الخطيب ، ديوان " عائدون " ، دار الآداب اللبنانية ، بيروت ، 1959م .
6. يوسف الخطيب ، ديوان " واحة الجحيم " منشورات دار الطليعة ، بيـــروت ، 1964م .
7. يوسف الخطيب ، ديوان " بالشام أهلي والهوى بغداد " ، دار فلسطين للثقافـــة والإعلام والفنون ، 1988م .
8. يوسف الخطيب ، ديوان " رأيت الله في غزة " ، دار فلسطين للثقافة والإعلام والفنون ، 1988م .

ثانيا : المراجع :

1- أحمد دحبور ، عيد الأربعاء " يوسف الخطيب ، مجنون فلسطين وشاعرها الكبير " ، جريدة الحياة الجديدة 1998/8/5م .

2- جاستون باشلار ، جماليات المكان ،ترجمة غالب هلسا ، دار الجـــاحظ للنشـــر ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، (د.ت) .

3- رجاء عيد ، لغة الشعر ، قراءة في الشعر العربي المعاصـــر ، منشـــأة دار المعارف ، الإسكندرية 2003م.

4- عدنان قاسم ، التصوير الشعري ،مكتبة الفلاح ،ط 1، الكويت 1988م .

5- عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر " قضـــاياه وظـــواهره الفنيـــة والمعنوية " ،المكتبة الأكاديمية ، ط3، 1978م .

6- على عشري زايد ، عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، مكتبة دار العلـــوم ، ط1، 1978م.
7- علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، منشورات الشركة العامة للنشر ، ليبيا ، د.ط. 1978م.
8- فراس السواح ، لغز عشتار ، دار علاء الدين ، دمشق5 ، ط5 ، 1993م .
9- كمال أحمد غنيم ، مقابلة صحفية في جريدة " النهار المقدســية " ، ع2022، 1992م .
10- ماهر حسن فهمي ، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، د. ت.
11- محمد حمود ، الحداثة في الشعر العربي المعاصر ، دار الكتـــاب اللبنـــاني ، بيروت ، ط1 ، 1986م .
12- محمد علي هدية ، الصورة في شعر الديوانيين بين النظرية والتطبيق، ط1 ، 1984م .
13- محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، دار نهضة مصر ، ط3 ، 2001م.
14- محمد فتوح أحمد ، الرمز والرمزية في الشـــعر العربـــي المعاصـــر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3 ، 1984م .
15- هاشم ياغي ، الشعر الحديث بين النظرية والتطبيـــق ، المؤسســـة العربيـــة للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1981م .
16- وليد مشوح ، دراسات في الشعر العربي الحديث ، دار سعد ، دمشق، ط1 ، 1993م .